التخييل في الكتابة الإبداعية

الكتابة الإبداعية واقع وطموح

مي نايف

بصوت حازم طلب موجه اللغة العربية القادم من المنطقة التعليمية من المعلمات عمل حصص نموذجية، تتفرغ عندها المعلمات ويذهبن للحضور كنوع من تبادل الخبرات، ولكنه استدرك ليشير إلى أن الحصص يجب أن تكون مشتملة على كل فروع اللغة العربية التي نقوم بتدريسها. وقد كنت أستمع إليه وهو يقول ذلك ثم ذهبت إلى حصتي لأفاجأ عند عودتي بالموجه يطلب أن يتحدث معي على انفراد، ووجوه المعلمات تظهر أن نزاعاً قد تم في غيابي بينهن وبين الموجه.

جلست بجوار الموجه، فإذا به يطلب مني أن تكون حصتي النموذجية في فرع التعبير، وافقت وأخبرته أنني سأبذل جهدي بها، فوجدت علامات الاستغراب تبدو على وجهه، فلقد جهز نفسه لحرب معي ولجذبٍ وردٍ حول هذه الحصة، ولكنه وجد أن كل ما أعده للهجوم هو ليس في حاجة إليه، فوجدته يعود طفلاً صغيراً وديعاً، ويقول لي إنه من الممكن أن يساعدني وبكل ما أريد وأنه سيساندني.

عندما عدت إلى غرفة المعلمات سألتني المعلمات عن الفرع الذي سأتناوله، وبدت علامات الاستغراب بادية على وجوههن من ارتياحي وتقبلي للأمر، وأنا المعروفة برفض كل ما لا يعجبني.

أذكر أنني أعددت لتلك الحصة إعداداً جيداً مكتوباً ومنفذاً داخل الحصة، حيث قمت بقراءة رأس الموضوع الذي كتبته لهن على شفافية عرضتها لطالباتي على جهاز overhead projector، كتبت لهم على الشفافية:

«بينما كانت المحكمة تضج بالقضاة والحضور، صرخ الرجل من خلف القضبان مظلوم .. مظلوم .. وامرأة في القاعة تنظر إليه وتذرف الدموع وتحاول إسكات طفلها الرضيع» ... اكتبي قصته».

قبل الحصة قمت بإعادة ترتيب الفصل، حيث جعلت الطالبات يتركن الأدراج ويدفعونها للخلف ويقمن بترتيب الكراسي بشكل نصف دائري يستطعن به جميعاً رؤية بعضهن البعض، والتفاعل باللغة المنطوقة وبلغة الجسد.

جلست طالباتي سعيدات بالتغيير ولم أقف يومها، بل جلست أمامهن لتتحدث بشكل حميمي عن القصة، قرأت رأس الموضوع وطلبت من طالبتين قراءته لتحفيز عملية التفكير من قبل الأخريات بالموضوع، ثم بدأت أطلب منهن أن يحددن لي زمن هذه المحاكمة، هل هي حديثة أم إنها في العصور القديمة؟ وأن يصفن المحكمة ... ثم طلبت منهن أن يصفن لي شخصية الرجل الموجود خلف القضبان: الصفات الجسمية والنفسية، وكنت أطلب من كل واحدة أن تقول صفة حتى قلن العديد من الصفات التي تراوحت بين الإيجابية والسلبية. ثم قلت من يصف منكن المرأة الموجودة في القاعة، ومن هي، وما علاقتها بالشخص الموجود خلف القضبان والأحداث ...؟ فإذا بالحماس يدب بينهن، وإذا بالمرأة تتلون بين أيديهن ما بين شقراء إلى سمراء إلى حمراء لتقف طالبة وتقول لي إنها محجبة يا معلمتي، لتنبعث الضحكات من بقية الطالبات ومن المدرسات الحاضرات.

انطلقت الطالبات في وصف طولها وشكلها وملابسها وملامح وجهها وبعضهن جعلها سيدة من الطبقة الراقية، ولكنها لم تستطع تريب نفسها، وبعضهن جعلها مسحوقة، وقررت بعضهن أنها زوجته، والبعض قلن إنها عشيقته، وغيرها الكثير ... كن يصفن، وكل واحدة تريد أن تزاود على الأخرى بوصف استطاعت تخيله ولم تقله زميلاتها ووجهها سعيد بما توصلت إليه، وأنا أحاول أن أنظم تدافع الأفكار عندهن ورغبتهن في القول بشكل سريع، وأطلب منهن في كل مرة أن نتكلم بشكل منظم ومرتب.

ثم قلت لهن: ترى ما حكايته، ولماذا هو خلف القضبان؟ وبدأت الحكايا تتدافع بعضهن قلن إنه سارق، مرتشٍ، متهم زوراً باعتداء على فتاة، جاسوس ... بعد أن استمعت إليهن قلت لهن دعونا نستمع إلى هذا الشريط وكنت فيه قد أعددت لهن عدة أصوات لرجلين وامرأتين يحكون عن سبب اتهامه بشكل بسيط ومركز، لإثراء ما لديهن من أفكار عن حكاية ذلك الرجل.

ثم طلبت منهن تخيل الشكل الذي ستكون عليه النهاية، والحكم الذي ستنطق به المحكمة، وردة فعل الرجل والمرأة والحضور، وانعكاس ذلك على المجتمع خارج القاعة.

بعدها قلت لهن: لقد تكلمنا جميعاً عن أكبر قدر من الاحتمالات للقصة، فهيا نبدأ القصة، حيث تبدأها أول طالبة في نصف الدائرة الموجود منبهة إياهن أن زميلتهن بحكم موقعها سيكون عليها أن تبدأ، فلتفكر آخر طالبة بالخاتمة، ولتفكر الطالبات على الجهة اليمنى بكيفة السير بالحدث قدماً، أما الجالسات أمامي في الوسط فعليهن أن يصلن بالصراع إلى ذروته، لتقوم الطالبات بعدهن بالنزول بالحدث حتى يقدنه للنهاية.

وما أن بدأت الطالبة بالتحدث حتى سألتها: هل ستتحدثين بلسانك ... هل أنت الراوي؟ وسألت طالباتي من منكن ستكتب القصة على لسان الرجل القابع خلف القضبان، ومن ستكتبها على لسان زوجته؟ فإذا بهن يرجونني أن نحكي القصة على لسان زوجته. وإذا بطالبة تقول لي أنا سأروي القصة على لسان قضبان السجن ... أعطيتهن بعض الدقائق لكتابة ما يردن قوله والتركيز بالكتابة، ثم بدأت القصة تنطلق من طالبة لأخرى وكلهن يردن التحدث.

انتهت الحصة وخرجت المعلمات سعيدات بها، بعضهن تقول استغربت من تدافع الطالبات للحديث، وأنا التي أتميز غيظاً في حصة التعبير، والطالبات يرفضن التحدث أو الكتابة، وأخرى تقول أنا لم أحضر حصة تعبير، وإنما لقد كان ما تم حضوره هو برنامج تلفزيوني، والبعض كن يقلن سنحاول عمل هذه التجربة في فصولنا.

مي نايف - باحثة من قالونيا تعيش في غزة